في رسم يحتل صفحة ٩٢ ، يتضمن عددا من الخيم والطائرات وطفلة ورجال يقفون في صف ، يوجد تعليقات يفترض انها لصاحب الصورة تقول : « النازحون في المخيم يعيشون عيشة شقاء وتعب». « طفلة تبكي للعيش الذي تعيشه في الخيمة الحقيرة » . « رجال في الصف لاستلام المؤن » . « سنرجع اليك يا فلسطين باذن الله واننا لعائدون » .

وهذه الجمل تتضمن تعابير انشائية ، مكتسبة من المدرسة او الوسط الاجتماعي ، وهي ناضجة مقارنة مع طريقة الرسم ، كما أنها مطبوعة بطابع تعليمي ، اذ تكاد تكون الرسوم اشبه بـ Illustrations لهذه الجمل ، او لنقل ان الرسم والكتابة كانا يخدمان بعضهما بعضا بصورة ناضجة ، تحريضية ، وهذا « الفن » لا يقدمه الطفل من تلقاء نفسه بهذه الصورة القصدية الواعية . وبكلمة اخرى ، تعبر هذه الجمل عن نمط من انماط التعبير اللغوي الذي يلقنه الكبار للاطفال بصورة او باخرى . ولو قارنا الكلام السابق بحديث الاطفال عن « القضايا الكبيرة » كما نقله الكتاب لوجدنا اثر المنظمة السياسية في احاديثهم : مصطفى حسين ١١ سنة، يتحدث عن الموت «بسهولة» مذهلة «انها ميتة واحدة» انها سهولة مفزعة كثيرا ما لا نجدها حتى عند الكبار ، بذات اليسر يتحدث عن (ناصر) وعن الحرب النظامية الفاشلة (ص ١١٦) . سمير ١٠ سنوات ، يتحدث عن الجندي اليهودي الذي هاجر من بولونيا « ولا يدري لماذا يحاربنا » وكيف رفض ان يطلق النار على الفدائيين في الكرامة ، ويجيب على سؤال بقوله حول امكانية العيش مع الاطفال الاسرائيليين « ... اذا أرادوا ان يعيشوا معنا بسلام نعيش معهم مواطنين في دولة واحدة ... » (ص ١٤٤ ، ١٤٨) . طلعت ١٤ سنة يروي كيف رفض ان يصبح طبيبا او مهندسا ، وترك المدرسة ليحرر الوطن عن طريق القتال (ص ١٥٨) . صقر ١٤ سنة يتحدث « لقد خلق الانسان وخلقت معه غريزة الدفاع عن النفس، والظلم على عدوه، فهما لا يتفقان في مكان واحد او زمان واحد » (ص ١٦٢) . غيفارا ١٤ سنة يقول في حديث طويل « بدأنا نسمع أجهزة الدعاية العربية الجاهلة الفاشلة . اخذتنا العاطفة ، واعتقد الشعب المشرد ان الجيوش العربية ستعيدنا الى بلادنا ... » (ص ١٧١) . « تحدثت مع اخي الكبير على أن الرجعية كانت السبب في الهزيمة، في ضياع فلسطين منذ البداية ، واقنعته ان الاشتراكية العلمية هي الطريق الوحيد لمعركة التحرير ، فالثورة التي تتخذ الاشتراكية العلمية طريقا تنتصر دائما لان الثورة من مصلحة الشعب الكادح المستغل » (ص ١٧٤ ، ١٧٦) . « أشعر بالسعادة حين افكر بأن حياتي ستكون حياة نضال من اجل تحرير بلدي وليس حياة برجوازية تافهة». « الفلسطينيون لا يحاربون اسرائيل على أساس محاربة اليهود ، بل يحاربون الصهيونية التي هي حركة استعمارية عنصرية ، وهذه الحركة تتجسد في دولة اسرائيل ، نحارب اسرائيل على أنها كيان سياسي عسكري اغتصبت فلسطين وشرد شعبها ... » (ص ١٧٨) .

لاول وهلة ، يبدو وكأن لنا الحق في ان نفخر بأطفال المخيم الذين اصابوا مثل هذا الوعي الثوري والنضج المبكر ، غير أن المسألة ليست بمثل هذه السهولة ، اذ بمكننا ان نلحظ ان الالفاظ والشعارات والافكار والمحاكمات التي تتضمنها هذه الشهادات اوسع من مستوى ادراكهم الموضوعي لها ، انها تتضمن لفظية تتكرر بصورة آلية ، تحكمية ، تلقينية ، ليس عند الاطفال قابلية ادراك ابعادها كما طرحت . لذلك يمكن النظر الى هذه الشهادات على أنها تعكس صورا من الافكار السائدة في نطاق معين ، او ظاهرة اجتماعية محددة ،دون أن تعني ان هذه افكارهم او هذا هو مستوى وعيهم ، وان ترددت على السنتهم . بل نجد في واقع هذه الشهادات شكلا من اشكال مأساة طفولة المخيم ، وان بدت بمظهر ايجابي ، اذ تجسد وجها آخر من اوجه الاضطهاد الذي يعيشه أطفال المنفى ، الذين يحملون فوق ما يتحملون ، يتكلمون عن قضايا اعقد من عالم طفولتهم .

ان النضج السياسي والتنظير — ان جاز لنا أن نسميه كذلك — الذي بدا في الشهادات وجه جديد لطفولة مضطهدة ، بعيدة عن الوطن ، عاشت النزوح من خلال الدماء والجثث المطروحة في الطرقات ، محرومة من مميزات الطفولة : اللعب، ثم اخيرا عليها ان تفهم دروس النضال الوطني والقتال . وبهذا المعنى يتحدث محمود درويش عن طفولته وعن النزوح اذ يقول « كنت ادخل عالم قضايا جديدة ، والتصق بها رغما عني ، مبتعدا بوتيرة سريعة ، من عالم الطفولة ، اذا كان